

## الموروثات المشرقية في العصر الأندلسي

بقلم: إلياس تيرس سادابا<sup>(١)</sup>

ترجمة: د. عدنان محمد آل طعمة<sup>(٢)</sup>

**إذا** أردنا دراسة انتقال الثقافة من المشرق العربي إلى الجزيرة الإيبيرية (الأندلس) فسيجد الباحث للوهلة الأولى أنه بحاجة ماسة لمعرفة ظاهرة كيفية تدفق منابعها وماهيتها، وكيف كانت مساراتها حتى استطاعت تلك الثقافة أن تصل إلى الأندلس.

ومن أجل ذلك يجب علينا أن ننعم النظر كثيراً حول شخصية كل واحد من أولئك العلماء والمفكرين والرحالة الذين أسهموا بمجهود كبير عبر الزمن خدمة لهذا العمل العلمي. وفي جانب آخر سيكون من المناسب اتباع طرق مختلفة وفقاً للفرع العلمي الذي تبحث فيه للوصول إلى معرفة الأفكار والمؤلفين والأعمال المشرقية الأكثر تأثيراً على الفكر الأندلسي، ولأجل الوصول إلى هذه الأهداف التي تمس البيئة الشعرية سيكون من الضروري حينئذ مراجعة المعلومات التي تخص عملية النقل بشكل دقيق، ولكن من الواجب أيضاً ونحن نمضي في البحث علينا أن نبرز التأثيرات الفكرية التي استعارها الأندلسيون وظهرت في الأشكال العروضية العربية التي انتقلت إلى الأندلس. والبحث في هذا الموضوع يمكن أن يصل بنا عبر هذا المسار لكي نستخلص الأداء الصوتي الخاص في الشعر الأندلسي!

ولو أن العمل يصعب تحقيقه ويتطلب أولاً مسح الطريق بأبحاث علمية سابقة، للدراسات تكون أكثر شمولية وتفصيلاً؛ ولكن بمراجعة أولية - حتى ولو كانت سطحية - للشعر الذي نريد أن ندرسه لن يكون صعباً العثور على مثل هذه التأثيرات المشرقية غير المحدودة والتمتازجة في القصائد الإسبانية؛ لقد منحتنا هذه التأثيرات ظواهر خاصة أثناء مراحل الانتقال الثقافي إلى الأندلس.

في المرحلة الأولى: إلى جانب تبني طرق الأشكال التعبيرية فإنهم استقطبوا من الشعر المشرقي جميع ما يحتويه من أفكار وموضوعات.

(١) مستعرب إسباني وأستاذ للأدب الأندلسي في جامعة مدريد المركزية سابقاً.

(٢) باحث عراقي يقيم في دمشق.

الإشارة إلى الصحراء؛ والمواقع الجغرافية في الجزيرة العربية والشام، أو في العراق، تبرز صفات وميزات خاصة للبدو القدماء، تصوّر جمال المرأة وتمنح الشاعر مشاهد خيالية عن كل جزء من أجزاء جسمها.

الأحوال، والظروف والشخصيات تتزامن وتدور حول العشق والعشاق بالإضافة إلى ذلك فإن آلاف المواضيع، والأفكار المطروقة نجدها تتكرر في الشعر الأندلسي حتى الأيام الأخيرة من تاريخ الأندلس.

فرز الموضوعات المطروقة هذه بقدر ما سنقرأه من قصائد أندلسية ليس شيئاً صعباً، لأن كل ذلك معروف جداً لتكراره، لكن يجب أن نمضي إلى الأمام أكثر، وبالتالي يلزم علينا اكتشاف موروّثات أخرى تقع خارج الموضوعات المشار إليها؛ وعلى العكس من هذا، فإنها تتكون من مشاهد رقيقة، وأفكار لطيفة ومختارة، وهي محاكاة أعاد صياغتها شعراء أندلسيون، وردت -من قبل- في أعمال مشرقية كبيرة.

سيكون هذا العمل بحثاً لا قيمة له وليس شعرياً إذا ما أردنا التأكد من معرفة ما يوجد من أصالة في الثقافة أو في الحضارة؛ لكن من الضروري دائماً تحقيق ذلك.

لنعرض في الفقرات الموجزة التالية -لمختارات عدة- خصائص الأفكار أو المشاهد المألوفة جداً عند أدباء تلك الحقبة. يجب أن أنبه إلى أن المؤلفين والكتاب -في مواضيع مختلفة لمختارات خاصة أو مختارات مشروحة- يستقدمون لنا الدعم في معرفة إقامة علاقة أو صلة بين هذا الشاعر أو ذاك من أصحاب هذه المختارات<sup>(٣)</sup>.

من بين هذه المختارات الشعرية المعروفة جداً مقطوعة صغيرة لسعيد بن جودي وقد خصصها لغانية اسمها جيحان أحبها ولم يرها ألبتة بل سمعها تغني فقال<sup>(٤)</sup>:

سمعي أبى أن يكون الروح فى بدنى      فاعتاض قلبى منه لوعة الحزن  
أعطيت جيحان روحى عن تذكرها      هذا ولم أرها يوماً ولم ترنى  
كأننى واسمها والدمع منسكب      من مقلتى راهب صلى إلى وثن<sup>(٥)</sup>

(٣) الكاتب -هنا- يعني أن الكتاب أصحاب المجموعات الشعرية كالذخيرة -لابن بسم الشنتمري- مثلاً حينما يتناول شاعراً ما، ويأتي ببعض قصيده، يذكر أبياتاً أخرى لشاعر مشرقى يقول وقد أخذها عنه، أو إن هذا المعنى أخذ بعضه الشاعر الأندلسي من البيت الفلاني؛ أي بتعبير أنق فإن أصحاب المختارات الشعرية يساعدونا لمعرفة وجه الشبه بين هذه المضامين الشعرية الأندلسية والمشرقية.

(٤) الحلة انسيرا ١٥٧/١-١٥٨، وقد ترجم دوزي الأبيات في كتابه أبحاث-ص ٨٦، كما وردت في كتابه - تاريخ إسبانيا الإسلامية- بالفرنسية- طبعة ليفي بروفنسال ٣٦/٢، وقد ترجمها إلى الإنكليزية نيكل في كتابه -الشعر الأندلسي ص ٣٠.

(٥) أورد ابن حيان قبل البيت الأخير:

استوصى خيراً بروح زال عن بدنى

فقل لجيحان يا سؤلى ويا أملى

## ❖❖❖ التراث العربي ❖❖❖

هذه الأبيات الشعرية كانت قد حظيت باهتمام شاعر تروبادور بروفنسي ونالت مكانة مرموقة عند فون شاك، ودوزي وحتى اليوم.

فالبيت الأخير كما أشار نيكل يذكرنا ببيت لشاعر إسباني هو أدولفو بيكر يقول فيه:

.. como Se adora adios ante sualtar

"كما يتعبّد إلى الله في محرابه".

وقد أخذت الفكرة عن عمر بن أبي ربيعة حيث يقول:

ضَيْقُ ذُرْعَا بِهِجْرَهَا وَالْكِتَابِ	مَنْ رَسُولِي إِلَى الثَّرِيَا بِأَنِي
فِي أَدِيمِ الْخَذَيْنِ مَاءَ الشَّابَابِ	وَهِيَ مَكْنُونَةٌ تَحْيِيَّ مِنْهَا
عَدَدَ النُّجْمِ وَالْحَصَى وَالْتِرَابِ	ثُمَّ قَالُوا: تَحَبُّهَا؟ قُلْتُ بِهِرَا
صَوَّرُوهَا فِي جَانِبِ الْمُحْرَابِ(٦)	ذُمِّيَّةً عِنْدَ رَاهِبٍ ذِي اجْتِهَادِ

لدينا شاعر آخر هو ابن فرج الجيّاني مؤلف كتاب -الحدائق- له أبيات شعرية تُظهر فيها العفة كخاصية تنم عن مزاج عاطفي وهي قصة معروفة عند الشاعر العذري، وهذه العذرية تؤكد -أيضاً- استمراريتها خلال النوم حينما يظهر طيف الحبيبة(٧) يقول:

بشكر الطيف أم شكر الرقاد	بأيّهما أنا في الشكر فادي
عففت فلم أنل منه مُرادي	سرى وأراد بي أملى ولكن
جريت من العفاف على اعتيادي	ومافى النوم من حرج ولكن

وهذه الفكرة دون شك تناولها المتنبي في البيت التالي:

يَرْتَدُّ يَدَا عَنْ ثَوْبِهَا وَهُوَ قَادِرٌ      وَيَعْصِي الْهَوَى فِي طَيْفِهَا وَهُوَ رَاقِدٌ(٨)

الوزير المصحفي-الوزير الأول في خلافة الحكم الثاني، والذي قضى حياته منكباً في سجون المنصور بن أبي عامر، له أبيات شعرية باخوسية(٩) وافرة تبدو في المقاطع التالية:

صفراء تطرق في الزجاج فإن سرت	في الجسم دبّت مثل صيل فارغ
خفيت على شرابها فكأنما	يجدون رياء في إناء فارغ

(٦) الآداب العربية وتاريخها، ج. كنعان، ص ١٧٣، بيروت، ١٩٣١، وديوانه، ص ٤٣١-٤٣٢.

(٧) بغية الممتنع، رقم ١٣١، ص ١٤١- طبعة مدريد- مطمح الأنفس ٨٩، وص ٣٣٥، طبعة محمد علي شوابكة، وابن دمية- المطرب ٥٥ ونفع الطيب ٢/٢٩٦، ٤٥٢.

(٨) المطرب- ص ٦.

(٩) نسبة إلى باخوس إله الخمر.

## التراث العربي

عبث الزمانُ بجسمها فتناثرت  
عن عينها في ثوبٍ نورٍ سابغٍ (١٠)

هذه الفكرة حول بريق وشعاع الخمرة وفيها يبدو الكأس فارغاً نجدها مكررة عند شعراء المشرق، يقول البحرني:

من قهوةٍ تنسى الهموم وتبعث الـ  
شوقَ الذي قد ضلَّ في الأحشاء  
يخفى الزَّجاجةَ لونها فكانها  
في الكفِّ قائمةٌ بغير إناء

كذلك قول الناجم:  
وقهوةٌ كشعاع الشمس صافية  
مثل السَّرابِ ترى من رقبةٍ شجاً  
إذا تعاطيتها لم تدر من فرح  
راحا بلا قدحٍ أغطيت أم قدحاً؟

وتنسب إلى المنصور بن أبي عامر نفسه قصيدة في الفخر تلك التي يقول فيها:  
رميَتْ بنفسي حَوْلَ كلِّ عَظيمةٍ  
وخاطرتُ والحرَّ الكريمَ مخاطِرُ  
وما صاحبي إلا جَنانٌ مُشَيِّعٌ  
وأسمُرُ خطي، وأبيضُ باتز (١١)

وبسرعة يقفز إلى الذهن أنَّ المؤلف يورد هنا في البيت الحادي عشر في لامية العرب للشنفرى (١٢):  
ثلاثة أصحابٍ فؤادٌ مُشَيِّعٌ  
وأبيضُ إصليتُ وصفراءُ عَيْطُلُ

كان المنصور في أحد الأيام موجوداً في أرميلات -Armilat- مع شاعرٍ بلاطه عبد الملك بن نفيل، كتب له قصيدة يصف الربيع كما في الأبيات اللاحقة:

بكت السَّماءُ على الثرى فتَبَسَّمت  
منها ثغورٌ عن عفائيلٍ جوهر  
أهدى الربيعُ إليه سكب سمانه  
فكسا الثرى من كلِّ لونٍ أزهر  
ضحكت متونُ الأرض عند بكائه  
عن أبيض يقق يروق وأصفر (١٣)

هذا الحظور الربيعي مع غيوبه وهو عبارة عن بكاء السماء وخصوبة الأرض التي تتبسم

(١٠) تقدم البيت الثالث على البيت الثاني عند الكاتب في ترجمتها الإسبانية: ورأيتُ أن أعيدها إلى الأصل كما وردت في الحلة السيرة - لابن الأبار ٢٦٣/١. ودوزي - Notices - أبحاث ص ١٤١، ابن عذاري - البيان المغرب ٣٧٢/١ - وترجمة فنان ٤٢٣/١ - ابن خاقان، مطمح ص ٥.

(١١) ابن الأبار: الحلة السيرة ٢٧٤/١، دوزي - أبحاث ١٢٥، المقرئ - نفح الطيب ٢٦٠/١، Analect، البيان المغرب ٢٩٣/١.

(١٢) اللامية ص ١٥، ط/ عبد الحليم حقي - مشيخ: شجاع؛ الأبيض: السيف، عيطل: طويل العنق، إصليت: صقيل: بمعنى استل من غمده، والصفراء: القوس.

(١٣) البديع في وصف الربيع، ص ١٣.



## التراث العربي

مروان بن أبي الجنوب<sup>(١٨)</sup>. لننظر مشهداً من أبيات للشاعر الأخير يشكل جزءاً من قصيدة في مدح الخليفة المعتصم العباسي صاحب بغداد:

لا تشبغ الطير إلا في وقائعِهِ      فأينما سارَ سارت خلفه زُمرا  
عوارفا أنه في كلِّ معتركِهِ      لا يُغمدُ السيفَ حتى يُكثِرَ الجُزرا

وابن سارة الشنتريني، شاعرٌ معروفٌ أيضاً، نحتفظ له بمجموعة أبياتٍ يصف فيها أشجار فواكه مختلفة، لننظر هنا واصفاً أشجار النارج:

أرى شجرَ النارج أبدى لنا جنىً      كقطر دموع ضرجتها اللواعجُ  
كراتٍ عقيقٍ في غصون زبرجدٍ      بكفٍ نسيم الرّوع منها صوالجُ  
نقبَلها طورا، وطورا نشمّها      فهنَّ خدودٌ بيننا ونوافجُ (١٩)

وهي تشبه أبياتاً أخرى لابن المعتز<sup>(٢٠)</sup>:

وكانما النارج في أغصانهِ      من خالص الذهب الذي لم يخلطِ  
كرة رماها الصّولجان إلى الهوا      فتعلقت في جوده لم تسقطِ

ولننظر إلى هذه الأبيات الأخرى؛ ولنفس الشاعر حول الباذنجان<sup>(٢١)</sup>:

ومستحسن عند الطعام مخرج      غذاه نعيم الماء في كلِّ بستان  
أطافت به أقماعه فكأنه      قلوبٌ نعاج في مخالب عقبان

وابن سعيد الذي احتفظ لنا بهذه المقطوعات ذكر لنا أنّ هذه الأبيات كان مخترعها ابن المعتز. ولم أستطع أن أجد بين شعر هذا الأخير شعراً استعار منه الشاعر الشنتريني، لكنّ النواجي في كتاب حلبة الكميت أورد الأبيات التالية ولم يذكر اسم قائلها، لكن بدون شك هي تلك الخاطرة والفكرة السابقة التي أوردها ابن سعيد:

وأبدع بستان أنيق رأيته      على طبق يحكي لمقلة رامق  
قلوب ظيباء أفردت عن جسومها      على كلِّ قلبٍ منهم كفّ باشق (٢٢)

□□□

(١٨) أحد الشعراء الذين عاشوا في كنف المتوكل، وكان حفيداً لمروان بن أبي حفصة ينهج منهجه، ويخطو خطاه في شتم آل علي بن أبي طالب (معجم الشعراء ٣٩٩).

(١٩) الرايات - لابن سعيد - ص ٣٥ - رقم ٧٤.

(٢٠) حلبة الكميت - ٢٦٥.

(٢١) رايات المبرزين - ص ٢٣٦ - رقم ٧٥.

(٢٢) النواجي - حلبة الكميت ٢٦٨-٢٦٩، وقد وردت الأبيات منسوبة لابن المعتز، في مطالع البدور - للغزولي، ٣١/٢؛ كذلك نهاية الأرب ٤٥/١١، وهو المجلد نفسه الذي استخدمه الكاتب في الصفحة السابقة!! - (الترجم)